مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري

في قصة (ندى)

للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير

أ.د مصطفى لطيف عارف

مجلة

نور الثقافية

مجلة
نور الثقافية
حداثة السرد الحواري
في قصة (ندى)
للقاصة عبير الحداد
جائزة القصة
بقلم الناقد والقاص العراقي القدير
أ.د مصطفى لطيف عارف
مجلة
نور الثقافية
حداثة السرد - السرد الحواري
مجلة
نور الثقافية

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

نصَّ الحداثة السردي عند القاصة (عبير الحداد) يُولَدُ عادةً من قطبَين متفاعلَين ومتصارعَين هما: الذات، والعالَم الواقعي، فالنَّص الحداثي لا يبدأ في العُزْلة أو الفراغ، بل في نطاقٍ من العلاقات التي تُرسَمُ بين القاصة المبدعة (عبير الحداد)، والعالَم أو الواقع بتعارُض مفرداتِهِ وتعقُّد علاقاته، إذ من الطبيعي ألَّا توجد في هذا الكون ذات " متوحِّدة "، بمعنى أنَّها تُمارس وجودَها بمعزل عن الآخرين وعن الأشياء، رُبَّمَا تتخذ تلك الذات موقف " الرفض " من العالَم الخيالي وأحيانًا كثيرة الواقعي،

ولكنها لا تستطيع أن تتخذ موقف "النفي" منه، ولا تبرز الذات في النص القصصي نسقا منعزلاً عن الآخر كما نلحظها في أثناء حديث القاصة عبير الحداد لنفسها، وغنائيتها الداخلية التي يطلق عليها "المونولوج الداخلي للساردة"، فنراها تقول: انتقلت منذ عامين مع زوجي عثمان، وابنتي ندى للعيش في منزل صغير يقع في أطراف القرية، كانت ندى تخرج للعب في الحقول المجاورة، تلاحق الفراشات، تطاردهن من زهرة إلى زهرة،

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

وفي يوم خرجت ندى كعادتها؛ لكنها لم تعد إلى البيت في الوقت المعتاد، بحثنا عنها كثيرا في الأرجاء؛ لكننا لم نعثر عليها، لم يكن ليخطر ببالنا أنها قد وقعت في البئرِ القديم، شارقَ اليومُ على الانتهاءِ دون أن نعثرَ عليها، أبلغَ زوجي كبارَ القريةِ عن ضياعِ ابنتنا؛ فأخبرهُ كبيرُ القريةِ أنها ربما تكونُ وقعت في البئرِ القديم، ذهبتُ مع زوجي برفقةِ بعضِ رجالِ القريةِ، كان الليلُ قد بسطَ جناحيهِ على المكانِ، أسرعَ الجميعُ إلى البئرِ، وأضاءوا بالمصباحِ؛ فلمحوا شيئًا يستقرُ في قاعِ البئرِ،

حينها نادى عثمانُ على ندى، وكم كانت سعادتي عندما سمعتُ صوتَ ندى وهي تقولُ: أبي أنا هنا، أخرجني يا أبي، أعطاهُ أحدُ رجالِ القريةِ حبلًا كان قد جلبهُ معهُ، فرمى حينها عثمانُ الحبلَ إلى البئرِ، ونزلَ إلى ابنتنا ندى، وأخرجها. إذ لا يمكنُ النظرُ إلى تجلي الذاتِ متجردةً عن الآخرِ، فإن من المحالِ أن يبرزَ الآخرُ في النصِ القصي بعيدًا عن الذاتِ؛ لأن الذاتَ تشكلُ المحورَ الرئيسَ في العلاقةِ الثنائيةِ بينها، وبين الآخرِ لتتمظهرَ في النصِ من قريبٍ أو بعيدٍ فهي التي شكلت هذا الآخرَ بل هي التي خلقتهُ في النصِ، وأقامت علاقتَها مع

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

غيره، وأن الوعي الوجداني بالذات لا يتم بطريقة ذاتية، كما لا يتم بناؤها وتطويرها إلا من خلال "الآخر" بإدراكه والوعي به، وتفسير دوره، والصراع المستمر معه، سواء أكان ذلك "الآخر" حقيقة أم خيالا، ومهما كان بعيدا أو قريبا، والحوار هو الكلام الذي يتم بين شخصيتين أو أكثر، كما أن الحوار في قصة ندى يتجه صعودا أو هبوطا نحو خطابات الشخصيات في إطار ما تطرحه من علاقات اجتماعية، ورؤيوية، وخصائص أسلوبية متنوعة،

ومن هنا تصبح لغة السرد في الحوار تتسم بحركة الأنا، والآخر في آن داخل التشكيلات الحوارية، إن الحوار لا يرقى بنفسه، ولا يضع مؤشرا بنفسه، وإنما من خلال اصطراعه مع صوت الآخر قربا أو بعدا، ونلحظ اللغة السردية هنا في قصة ندى تختلف عن اللغة الشعرية عند القاصة عبير الحداد، فهي هنا بسيطة، منتبهة، حالمة أحيانا، وخالية مما يعتري الشعر من ترميز، وإيحاءات، فنراها تقول: مضت عدة أيام يطل فيها الصباح على الدنيا إلا غرفة ندى التي لم تشرق شمسها بعد ذاك اليوم، إذ أصبحت ندى قليلة الحركة في المنزل، تحبس نفسها في غرفتها من الصباح إلى المساء، لم تعد مرحة كالسابق،

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

صارت الفراشات أكثر شيء تخافه ندى، حقًا لا أعرف ما الذي حدث لابنتي، لم تعد ندى التي أعرفها، باتت حزينة كئيبة، سمعتها ذات ليلة تئن؛ فاقتربت من باب غرفتها، وعندما هممت بفتحه لم أجد لندى أي أثر في الفراش، بحثت في الغرفة جيدا؛ لكن لم تكن موجودة، أيقظت حينها زوجي عثمان، وعلى مضض طفق يبحث معي في الدار عن ندى، بعد نصف ساعة تقريبا من البحث، رأيت ندى تجلس على سريرها، اقتربت منها، سألتها: ندى حبيبتي أين كنت؟ لقد فتشنا عنك كثيرا، شعرت حينئذ بارتجافها، أخذتها وخبأتها في حضني، سألتها: ندى ما بك؟

كانت أسنانها تصطك من الرعشة، كان الشرود يبدو جليا على وجهها، شعرت وكأنه سيغمى عليها، فتركتها تنام في حجري، وبقيت أربت على شعرها حتى أطل الصباح، وعندما استيقظت، بادرتني بسؤالها: أمي، أتعرفين أين توجد الأهرامات؟ فقلت: نعم بنيتي، فقاطعتني ندى، وبدأت تصف لي الأهرامات من الداخل وصفا دقيقا لا يعرفه إلا من زار الأهرامات، وعندما سألتها عن مصدر المعلومات، قالت: لقد كنت هناك ليلة البارحة، حاولت أن أسيطر على زمام هدوئي، وسألتها: ماذا تعنين بأنك كنت هناك البارحة؟ نهضت ندى، وتوجهت صوب الشرفة، وقالت: كما سمعت أمي لقد زرت الأهرامات ليلة البارحة، أرادت القاصة المبدعة عبير الحداد أن تكتب شيئًا خارج الشعرية

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

وربما أرادت الخروجَ من كلِ الأشكالِ، والتقنياتِ التي ألفت الكتابةَ بها، وأردت للغتها أن تظلّ عاريةً تمامًا لتعكسَ بكلِ دقةٍ، وحرفيةٍ، فهي تحدثت عن علاقةِ الأمِ بابنتها المفقودة / الحيةِ فهي أعطتنا إشاراتٍ بأنها غيرُ موجودةٍ من خلالِ الوصفِ السرديِ الرائعِ تجمعُ بين العلاقةِ الإنسانيةِ التي تكونت علاقتُهما من خلالِ الأحداثِ الاجتماعيةِ مثلت شخصيةُ المرأةِ /الأمِ الحنونِ / وندى، وبين الرجلِ الأبِ /عثمان، فنراها تقول:
صمتُ ولم أناقشها، نظرت إلي، وكأنها تتفحصُ ملامحَ وجهي، وتقيسُ مدى تصديقي لها، ثم قالت: أمي أنا لا أكذبُ،

الليلة حسبَ ما أظنُ سأزورُ قبرَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، سألتها وكيف عرفتِ ذلك؟ قالت: قبلَ ذهابي لزيارةِ الأهراماتِ رأيتُ صورةً لهم في منامي، والبارحةَ شاهدتُ قبرَ نبينا صلى الله عليه وسلم، قلتُ: أتقصدين أنكِ تزورين تلكَ الأماكنَ في مناملِ؟ قالت: لا أمي، إن المنامَ مجردُ إشارةٍ كي أستعدَ لزيارةِ المكانِ المختارِ. عقبتُ على كلماتها قائلةً: ومن اختارهُ لكِ؟ قالت: لا أعلمُ، لكني بدأتُ أعتادُ ما أرى، أحيانًا أخافُ كما رأيتِ حالتي البارحةَ، وأحيانًا أجدني غايةً في الانسجامِ والاستمتاعِ بالتنقلِ عبرَ بوابةِ الزمنِ.

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

والتجاوزَ، فالآخرُ طريقٌ إلى الوعيِ بالذاتِ بقدرِ ما يوقظُ الذاتَ على حقيقتِها. ونحن حينَ ننظرُ إلى الآخرِ نرى فيه الجانبَ المغايرَ والمختلفَ، ولذلك قد ننكفئُ إلى ذواتِنا فنحتمي بخصوصيتِنا، وتعترينا حالةٌ من النرجسيةِ، أو نعودُ إلى نرجسيتِنا الأصليةِ حينَ تكونُ العلاقةُ بالآخرِ علاقةَ تحدٍ. فالنظرُ إلى الآخرِ إنما هو اختراقٌ للذاتِ؛ إذ إن الآخرَ قد يمثلُ الجديةَ، فيبهرنا بغياريتِه، وتجذبنا حقيقتُه، ويدفعنا إلى التماهي معه. ولذلك فإن الموازنةَ معه قد تفضي إلى التجاوزِ، ومن ثم إلى التعارفِ والائتلافِ. إن تضخمَ الذاتِ وسعيَها إلى نفيِ الآخرِ غدا من السماتِ المترسخةِ في الخطابِ القصيِ،

ومنه تسربت إلى الخطاباتِ الأخرِ، ومن ثم أصبحت نموذجًا سلوكيًا ثقافيًا يعاذ إنتاجه؛ لكونِها قيمةً نسقيةً منغرسةً في الوجدانِ الثقافيِ، وهي ما تسببت في إحداثِ انقسامٍ بين الذاتِ والآخرِ في الميدانِ السرديِ الذي يؤكدُ على تلازمِ الذاتِ بالآخرِ، في إشارةٍ إلى عدمِ تمكنِ الذاتِ من تقوقعِها على نفسِها واحتفالِها بنرجسيتِها، وهو ما يماثلُ رأيَ هيغلَ الذي يشيرُ إلى أن الفردَ يكتشفُ "الأنا" الخاصةَ به ليس عن طريقِ الاستبطانِ، بل عن طريقِ الآخرينَ في سياقِ عمليةِ الاحتكاكِ والنشاطِ، منتقلاً بذلك من الخاصِ إلى العامِ. فنراها تقول:

_ماذا! بوابةُ الزمنِ؟

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

_نعم أمي، وإلا بمَ تفسرين انتقالي من زمنٍ إلى آخر؟
اعتليت صهوةَ التاني، وقلت لها: منذ متى وأنتِ تسافرين عبر الأزمنة؟
جاءت إجابتُها لتؤكدَ صحةَ ظني: منذ أن وقعت في البئرِ أمي. صمتُ ولم أعقب على آخرِ جملةٍ قالتها.
وبعد تفكيرٍ عميقٍ، قلت:
_أتمانعين حبيبتي أن آتي معكِ هذه الليلة؟
_لا مانع لدي، لكني أخشى...، صمتت ندى ولم تكمل عبارتها.
سألتها: ماذا تخشين حبيبتي؟
إذن ثمةَ جدلٌ قائمٌ بين الأنا وذاتِها من جهةٍ، وبينها وبين الآخرِ من جهةٍ أخرى. فالأنا تتحددُ في متكلمٍ بعينِه على المستوى اللغوي، وعلى المستوى السيكولوجي تتحددُ عبر حالاتِ الوعيِ الذاتيِ من خلالِ بوابةِ اللغةِ التي هي أوجبُ الأفعالِ الوجدانيةِ؛

إذ يتمُ بوساطتِها وعيُ الإنسانِ لذاتِه. أما الآخرُ فقد يتموضعُ في ذواتٍ أخرَ تكونُ مرآةً لأناهُ، وقد يتحققُ هذا الآخرُ في الذاتِ الوجدانيةِ، أو في العالمِ الواقعيِ بما يشتملُ عليه من كائناتٍ وظواهرَ، على نحوٍ يبرزُ التفاعلَ بين الأنا وذاتِها، أو الذاتِ وذواتٍ أخرَ، أو بينها وبين العالمِ. لقد بدأت القاصةُ الرائعةُ عبير الحداد في نصِها القصيِ يتمظهرُ فيه نوعٌ من الحوارِ، والحوارِ الأعمقِ بين ذاتِها وذاتِ الآخرِ، وهو حوارٌ من شأنِهِ أن يعملَ على تشخيصِ النقائضِ والمختلفاتِ التي يتألفُ منها الوجودُ الإنسانيُ. فكان نصُها القصيُ مزيجًا من الداخلِ والخارجِ، الخاصِ والعامِ، المرئيِ واللامرئيِ، الواقعيِ والشعريِ، وأن يجليَ تمظهراتِ الذاتِ والآخرِ، وتمركزَ الآخرِ وازديادَ حضورِه في مواضعَ معينةٍ ليعكسَ اهتمامَ الذاتِ به وتوافقَها معه؛ إذ إنه يصدرُ عن تجربةٍ

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

حقيقةً لها مسوغاتها نحو الآخرِ المحبوبِ أو الحنينِ إلى الابنةِ المفقودةِ ندى. ولذلك فهي /الساردة/ من فرطِ حبِها لها وولعِها بها، تراها تبسطُ لها جانبًا كبيرًا من عواطفِها واهتماماتِها لتجعلَها تتمركزُ على حسابِ الذاتِ، فنراها تقول: ردت: لا شيء أمي، تجهزي الليلة، وكوني في الموعدِ الساعةَ الثانيةَ عشرَ صباحًا، ثم غادرت الشرفةَ وتوجهت صوبَ غرفتِها. لم أخبر زوجي عن المستجداتِ، بل أردت أن أخوضَ التجربةَ بنفسي. في تمامِ الساعةِ الثانيةَ عشرَ إلا خمسَ دقائقَ خرجتُ، وتوجهت صوبَ غرفةِ ابنتي التي كانت تنتظرني. حانت اللحظةُ الحاسمةُ، أمسكتُ بيدِ ندى، وعندما دق جرسُ الثانيةَ عشرَ صباحًا، اختفت ندى وكأنها فصَ ملحٍ وذابَ، لم أرَ سوى يدي الممدودةِ في الفراغِ. انهرتُ حينها باكيةً، أصرخ: ندى لا تذهبي، أرجوكِ ابقي معي. فجأةً أشعلت الأنوارُ في الغرفةِ

، رفعتُ رأسي، فرأيت زوجي عثمان يقفُ في البابِ. سألته: منذ متى وأنت هنا؟ قال: منذ اللحظةِ التي غادرتِ فيها الفراشَ. تقدم نحوي، ثم أكمل كلامه:

_هذا يكفي عزيزتي، البكاءُ لن يعيدَ إلينا ندى. لا تعذبي نفسَكِ كلَ ليلةٍ بالمجيءِ إلى هنا، والحديثِ مع دميتِها. عليكِ بالصبرِ حبيبتي. إن طبيعةَ الخطابِ هنا تكونُ محملةً بالخشيةِ والخوفِ من الفقدانِ والصدِ والتوقِ إلى الامتلاكِ. وأحيانًا أخرَ تكونُ الذاتُ مرآةً لها تقومُ بتشذيبِها

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

، وتستعرضُ فيها ما يتخللُ ذهنَها من أفكارٍ ورؤى. ولذا فإن الذاتَ هنا تحتلُ نسبةَ المركزِ قياسًا إلى الآخرِ الذي يكونُ حضورُه مكملًا لصورةِ الذاتِ بما يحققُ صورةَ التلازمِ بين الذاتِ والآخرِ. وبمعنى آخر يكونُ للآخرِ حضورٌ نسبيٌ يستدعي وعيًا من الذاتِ بدلالةِ وجودِه في المشهدِ السرديِ. إذ يتدخلُ هذا الآخرُ بأشكالِه المختلفةِ في الضغطِ على جزءٍ من الذاتِ المتداخلةِ وتوجيهِ وعيِها، فنراها تقول: صرختُ حينها في وجهه: لا، أنت تكذبُ، جميعُكم تكذبون، ندى لا تزالُ حيةً، أنت فقط تغارُ منها لأني أتركُكَ وأذهبُ إليها.

تجاهل عثمان كلماتي، واقترب مني أكثرَ ليربتَ على كتفي قائلًا: حبيبتي هيَا لتنامي قليلًا، الفجرُ أوشك على الطلوعِ، تستطيعين أخذَ الدميةِ معكِ إن شئتِ.
بعد سماعي لكلماتِه التي سقطت على قلبي كالصاعقةِ، أنزلتُ يدهُ بقوةٍ، ورميتُ بها بعيدًا عن كتفي. صرختُ بانفعالٍ شديدٍ: أتنعتُ ابنتَنا الوحيدةَ بالدميةِ؟ هيَا اخرج من هنا ولا ترني وجهَكَ، ندى كانت هنا، لو قدمتَ قبلَ ثوانٍ قليلةٍ لكنتَ رأيتَها.

مجلة نور الثقافية

حداثة السرد الحواري في قصة (ندى) للقاصة عبير الحداد

بقلم الناقد والقاص العراقي القدير أ.د مصطفى لطيف عارف

ظل عثمان صامتًا ولم يعقب على كلماتي. أشحتُ بوجهي عنه إلى الجهةِ الأخرى، وقلت: هيّا أطفئ النورَ وانصرف؛ فندى قد تعودُ إلى هنا في أيِ لحظةٍ. نفذ عثمان ما طلبته منه دون أن ينبسَ ببنتِ شفةٍ، ثم انصرف. بعد أن أغلقَ البابَ، لمحتُ ندى تقفُ بجوارِ السريرِ، والدموعُ تنهمرُ من عينيها. أمسكتُ بيدِها، وضممتُها إلى صدري، وأنا أتمُ باكيةً: حبيبةَ أمكِ أنتِ، لا تكترثي لما يقولُه والدُكِ، إنه يحبكِ. إن أهمَ ما يميزُ القاصةَ المبدعةَ عبير الحداد قدرتُها على السردِ المرئيِ عن طريقِ حواراتٍ جميلةٍ كتبتها القاصةُ بلغةٍ شعريةٍ

وشاعريةٍ، ورسمتُها كاللوحاتِ الفنيةِ بريشتِها النقديةِ. وهي مشاهدُ سينمائيةٌ لقصةٍ وقعت بين الأمِ وابنتِها في الواقعِ، فضلًا عن قدرتِها على شدِ المتلقي من خلالِ الحوارِ الداخليِ المونولوجِ، وقدرتِها الفائقةِ على تسلسلِ الأحداثِ، والتشويقِ الجميلِ الذي يجعلُك تعيشُ كلَ لحظاتِ القصةِ وكأنها تمثلُ أمامَكَ، وأنت تبحثُ عن النهايةِ. ومن خلالِ تصويرِ القاصةِ المبدعةِ عبير الحداد الجميلِ للمشاهدِ والأحداثِ والحواراتِ الداخليةِ والخارجيةِ، فضلًا عن ممارستِها للنقدِ اللاذعِ للقتلِ والدمارِ الذي دمرَ الأبرياءَ من النساءِ والأطفالِ، ليصبَ جمَ غضبِه على الفقراءِ والمحتاجينَ، وتناولت قضيةً من أهمِ قضايا المجتمعِ، وهي قضيةُ الفقدِ الإنساني، فنراها تقول: هكذا مرت الأيامُ، وبقيت ندى حيةً ترزقُ، وترتعُ في جنانِ قلبي وحولي، لم تمت في تلكَ البئرِ اللعينةِ مثلما يقولُ زوجي والآخرون.